الثقافة

مجلة تصدرها وزارة الثقافة . الجزائر .

- الافتتاحية «مرحلة تصحيح المفاهيم»
- مظاهرات 11 ديسمبر 1960
- مجادلات حول الربوة المنسية
- مفدي زكريا شاعر الوحدة المغربية
- ملفان عن الراحلين:
عيسى مسعودي ، ومحمد بوزيدي
- حمزة بوكوشة «العالم المصلح

السنة التاسعة عشر ـ عدد: نوفمبر / فيفري 106/105

في هذا العدد

❋ الابـــداع

2 ـ الشعر

1 ـ القصة

* الملـــفات

1 ـ ملف عن الراحل محمد بوزيدي

2 ـ ملف عن الراحل محمد عيسى مسعودي

دراسات وأبحاث

بعض جوانب
شعر الشيخ محمد آل خليفة

موسى الاحمدي نويوات

أتعرض في هذه العجالة الى بعض جوانب أدب الفقيد الشيخ محمد العيد آل خليفة بن الجزائر البار، بل ابن الاقطار العربية، والاسلامية كلها[1].

فقد قضى مالا يقل عن ستين سنة في الدفاع عن قضايا العروبة والاسلام، على اختلاف انواعها، والتعرض في سبيل ذلك لأنواع الاضطهاد الحسي، والمعنوي. تعرض الى أذى الاجانب فتدرع بالصبر الجميل، شأن كل مؤمن راسخ الايمان، ثابت على مبادئه المقدسة، مضح في سبيل الله، عامل على اسعاد أمته بل واسعاد البشرية جمعاء. وكافح لإنقاذ العروبة من براثن الاستعمار، وايقاظها مما كانت فيه من سبات، وحثها على طرح الخمول، وعلى الجد

1) أما ما يتعلق بحياته، فقد تكلمت على نبذة منها في شرح الاسئلة الرمضانية ص 117 طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

والسعي للحاق بركب الحضارة.

وكان من حين الى آخر يحس بأن أبناء عصره لم يفهموه فيضيق ذرعا بذلك، ويرسل شكواه انات شجية، تهتز لها المشاعر، وتتفطر القلوب. أليس هو القائل في مطلع قصيدة نظمها سنة 1354 هـ 1936م:

ظننت في الناس خيرا   فخاب ظني وخبت

ويختمها بهذا البيت الرائع:

وليت نحوك وجهي   وتبت يا رب تبت[2]

أليس القائل سنة 1353هـ 1935م في احدى لزومياته:

(سمعتك تدعو الميت في القبر ضارعا
فيا عجبا للحي يستصرخ الميتا!)

الى أن يقول:

(خلا القلب من حب العباد وبغضهم
وأصبح بيتا للذي حرم البيتا)[3]

بل يبلغ به الألم حدا يضيق فيه ذرعا بالحياة، ويتمنى الموت. واسمعه في قصيدة (الشكي والتشكي) التي تذكرنا بلزوميات المعري:

ظلمات أمك يا جنين كثيفة   شتى وأمك يا جنين ولود
صبرا على ليل الحياة وطوله   حتى يشق من الصباح عمود
من مات لا ريب استهل فلا تخف   الموت دنيا واللحود مهود
يا موت خولت ابن آدم راحة   ما بعد جودك لابن آدم جود.[4]

إلا أنها نزوات شاعر مرهف الاحساس لا يلبث ان يعود الى خالقه، تاليا قوله عز وجل: (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) سورة يوسف الآية 87، وكيف ييأس من روح الله

---

2) الديوان ص 364.
3) الديوان ص 363.
4) الديوان ص 6

وهو القائل في رواية بلال (ض):

(يا جسم صبرا ما شقيت فهكذا شقيت جسوم الانبياء قديما
واذا الورى لم يرحموك فلا تضقَ ذرعا فربك لن يزال رحيما)

والدين مفتاح شخصية محمد العيد، وإطار شعره، والاساس القوي الذي بنى عليه انتاجه. نجده يردد اسم الله في غضون كل قصيدة، ويلجأ الى خالقه في الملمات راجيا منه ان يوفقه في أداء واجبه: وهو اصلاح شعبه في أمور دينه ودنياه، ذلك الشعب الذي وهبه هذا العالم الجليل حياته من غير من، ولا أذى، وأحبه الى أقصى حدود الحب، واعتبر ديوانه نبراسا له هداه في الظلمات الحالكة، لأنه يصدر عن هدى من الله، وسنة من نبيه (صلى الله عليه وسلم):

(أقدمه مشعلا ثاقبا الى شعبي البطل الثائر
ليسعى على ضوه هادفا الى المجد في ركبه السائر
هدية من يهوى شعبه تتيم مذفطرة الفاطر
تقرب للشعب زلفى بها وحاشاه من وصمة الناكر
اذا ما جزاه بعرفانها أصاب بها بغية الشاعر)

ذلك أنه يشعر بما للكلمة من سحر قوى، وما للشعر من أثر على النفوس، وسير الحوادث.

وقد كان العرب قديما يعتبرون الشعر ضربا من السحر:

لقد بذر الشعر فيه الفدى وحسبك بالشعرً من باذر
وما الشعر إلا شعور سما خيالا بإيحائه الساحر
يهز النفوس بتياره فتسمو الى الاوج كالطائر
وتسبح في عالم شامخ على الارض من افكها طاهر[5]

كان محمد العيد عالما تقيا، مقدرا للعلم والعلماء، مدركا لأهمية الثقافة، في حياة الشعوب، وفي ازدهار الحضارات. فلا غرو أن يخصص قصطا وافرا من ديوانه للإشادة بالمعارف ومالها من أهمية

5) الديوان ص 5.

في حياة الافراد والجماعات. كان يريد لشعبه ان يكون أصيلا. ولا أصالة في التنكر للماضي والمقدسات من دين ولغة وتراث علمي حضاري. ولنصغ اليه يتحدث عن القرآن في رده على أشيل أحد المستعمرين الجزائريين الغلاة الذين نسبوا ضعف المسلمين الى طبيعة دينهم:

فاعزو الاباطيل للقرآن وابتدعو
في القول هيهات لا تجدي الأباطيل
وازروا عليه كما شاءت حلومكم
فإنه فوق هام الحق إكليل
ماذا تقولون في آي مفصلة
يزينها من فم الأيام ترتيل
ماذا تقولون في سفر صحائفه
هدى من الله ممض فيه جبريل
آياته بهدى الاسلام ما برحت
تهدى الممالك جيلا بعده جيل
فآية ملؤها ذكرى وتبصرة
وآية ملؤها حكم وتفصيل
كلامه الصدق لا من ولا كذب
وحكمه الحق، لا ميز وتفضيل[6]

ويقول في بائية نظمها سنة 1344م ـ 1926م يخاطب بها الشباب، على لسان مجلة الشهاب:

(يا شباب العلا اعتصم بالتآخي
زانك الله في العلا من شباب!
أنشر السنة الكريمة واعمل
بهداها وخذ بحد الكتاب

6) الديوان ص 85.

إن تكن قد بنيت في الناس مجدا فاحرس المجد من دواعي الخراب[6]

ويلقي بمناسبة ختمه لتدريس القطر لابن هشام ببسكرة سنة 1346هـ ـ 1928م ميمية يشيد فيها بالعلوم الدينية، واللغوية، وغيرها، ويهيب بالشباب ان يكونوا مستقيمين في اخلاقهم، وان يرجعوا الى هدى القرآن والسنة، وان يكون همهم الذود عن وطنهم وحرماته، والنهوض بالأمة الى ما فيه خيرها وصلاحها:

(يا معشر الطلاب هل من ناهض
بالشعب حر حافظ لذمامه؟
أو باعث في الشعب روح إبابة
منكم فموت الشعب في استسلامه
ما عاثت الذوبان في أغنامه
لو كانت الاساد في أجامه)[7]

ويدافع عن اللغة العربية دفاع المستميت. يقول في قصيدة ألقاها ببسكرة:

(لا تهملوا هذا اللسان ففقدكم
في فقده، ودوامكم بدوامه
فكأنما هو عقد درفائق
رصفا وعلم النحو سلك نظامه
وكفاكم في النحو قدرا أنكم
راوون علم النحو عن علامه [8]

ويقول في ميمية أخرى:

(وتعلموا فصحى اللغات فإنها
علوية الاسرار والانغام

7) ص 88
8) الديوان ص 90

كونوا مع التعريب واحموا جنبه
لا تنسخوه بنقطة الإعجام)

ونجد نفس الغرض في قصيدة أنشدها باحتفال أقيم بمناسبة تشييد مدرسة التربية والتعليم ببسكرة:

(ونقصى عن الفصحى، ونلهى بغيرها
وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي
وما نحن الا من سلالة يعرب
فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم
سلام كأزهار الربى طيب الشذى
على كل قح، في عروبته شهم[9]

ولئن أراد الشاعر لشعبه ان يكون أصيلا، غيورا على أصالته، عاملا على الانتفاع بايجابياتها، فلا يريد له الخمول والانزواء، والتغني السلبي بمآثر قومه، فان ذلك لايجد يه، ولا ينفع أي عربي في أي قطر كان:

(يا بني الشرق زاولوا العلم حيا
ودعونا من نبش مافي القبور
لا تخافوا العثار في البحث وامضوا
قد يكون العثار باب العثور
فبنوا الغرب أشرفوا في التفادي
للمبادي فأشرفوا كالطيور[10]

يريد للعروبة إذن ان تكون ـ مع محافظتها على أصالتها ـ مواكبة لركب الحضارة، متفتحة على العالم المعاصر، متحكمة في زمام أمورها، متبوعة لا تابعة، غالبة محترمة، ولا يكون ذلك الا بالعلم كما يعرفه العصر. فهو في الاختراع، والسيطرة على المادة، والتحكم في

9) الديوان ص 91.
10) الديوان ص205.

(التكنولوجيا)، والانتفاع بخيرات البر والبحر. وهو القوة والحياة والحرية:

والعلم أحصن مالاذ الرجال به
من فاته العلم ديست أرضه ورمي[11]

العلم صناعة واقتصاد:

(غير حي على البسيطة شعب
ليس فيه صناعة واقتصاد
ومن العلم للمواطن تاج
ما جد يحتفي به الامجاد
أيها الشعب خذ من العلم حظا
لم يشبه زيغ ولا إلحاد[12]

ومن إحدى نونياته:

همة المرء أمعنت في الصحاري
فجلت ما جلته بالإمعان
كم كنوز نفيسة كشفتها
تحت تلك الرمال والكثبان
من معين بها ونفط وغاز
حول خام منوع الألوان
وهوت في البحار تبحث عما
عز من لؤلؤ ومن مرجان
ورقت في الفضاء تبحث عما
في الدراري اختفى من السكان
قد غزتها الجيوش كالأرض فتحا
وهي كبرى عجائب الإنسان[13]

11) الديوان ص 107.
12) الديوان ص 104.
13) الديوان ص 121.

ويناشد أبناء وطنه بهذه الأبيات المؤثرة التي تذكرنا قوميات الزهاوي:

(ولا ترتجوا للشعب نصرة غيركم
فما غيركم يا قوم للشعب من وال
بني وطني جيرانكم سبقوكم
الى قصبات السبق فيه بأميال
فكم لهم فيه مدارس جمة
تقل ألوفا من شباب وأطفال(14)

لكنه يحذر الشباب من الاخذ بقشور الحضارة الغربية، فإن في ذلك الخسران المبين:

نقلتم عن الغرب عرى الرؤوس ويعض بهارجه الساحرة
فأين ملاجئه القائمات وأين مكاتبه العامرة؟
وأين معامله الصاخبات وأين معارفه الزاخره؟
اذا أصبح الناس غلف القلوب فما تنفع الأروس الحاسرة(15)

ويتخيل حوارا بينه وبين أحد المنسلخين عن أصالتهم، المتنكرين لحضارتهم، النابذين لمقومات الحياة الروحية العربية:

رب مستهزئ بمبدإ ديني بين قومي كما يراه يراني
صده عن تراثه كل رأي أجنبي فتاه في الود يان
قال لي: خذ بمنهجي قلت مهلا كيف اختار قاصيا عن دان؟!
قال لي: إنه على الغرب أجدى قلت: جوى وجوه ضدان!
قال لى: إنه تقدم فكر قلت: مرعى وليس كالسعدان!
لست - ماعشت - للتقدم ضدا غير أني على الحمى غير جان
إن حفظ المقومات حياة كل شعب أضاعها فهو فان

14) الديوان ص 267.
15) الد يوان ص 127.

أو فخذ لي ما كان منها شرابا   مستطابا لشعبي الظمآن(16).

فهو لا يرى تناقضا بين الأصالة والتفتح علي الحضارات المعاصرة، والانتفاع بخيراتها. إنما يريد ان يجمع بينهما بمقدار، لئلا تطغى المادة على الروح، والدنيا على الدين، وفقدان الشخصية على الاصالة، والعلم ملاك طاهر سبيله الخير، واسعاد البشرية، فاذا استعمل في غير ما خلق له، أصبح وبالا على الانسانية، والحياة على وجه البسيطة.

طرق محمد العيد هذا الغرض مرارا، وتعرض له بكيفية خاصة بعد ما ألقت أمريكا قنبلتيها الذريتين على اليابان في الحرب العالمية الثانية:

كرة واحدة في هورشيما   تركت كل مبانيها هشيما!
هذه معجزة العلم التي   فضحت بالجهل من كان عليما
أمريكا زرعتها بذرة   تدع الكون من السلم عديما

ومنها:

نشأ العلم ملاكا طاهرا   واستحال اليوم شيطانا رجيما
أصبح اليوم جحيما بعدما   كان بالأمس على الارض نعيما
عاد في الأرض فسادا وأذى   لم يدع شبرامن الارض سليما
ومضى يهدم ما كان بنى   من حضارات فتنقض حطيما
يطرد السلم من الارض كما   يطرد الصياد في القنص ظليما
لا أرى العلم هدى ما لم يكن   صافحا عن زلة الجهل حليما
وأمينا عادلا في حكمه   وكفيلا بالمواخاة زعيما
هذه مأثرة العلم التي   قد أثرناها على العلم قديما
شكت الارض الى خالقها   من كريم فوقها صار لئيما(17)

نعم: ا لعلم فضيلة، العلم طهارة، وزهد، وصلاح. هذا ما ينبغي ان نعلمه ابناءنا، وبناتنا في مختلف المدارس ومراحل التعليم. والعلم في آخر مراحله اعتبار في الكون: لأن الكون سفر لا يفهمه الا العلماء:

16) الديوان ص 252.
17) الديوان ص 253.

(كذلك سفر الكون وعظ وحكمة وزجر وتوبيخ وقرع بفاة
لو اتعظ القراء منه بختمه لكان عليهم أيمن الختمات)(18)

وهو خلود للأفراد والأمم:

(مات الأيمة أهل العلم ـ لا بليت ـ
أو صالهم ولهم في الكون أثار
هم خلفوا العلم تذكارا لإنفسهم
وما يؤثـر في السالين تذكار
قد أفعموا الكتب اخبارا وما لبثوا
ان أصبحوا وهم في الكتب أخبار)(19)

إن محمد العيد لمن ا لشعراء الافذاذ الذين يخلدهم التاريخ، والذين مثلوا الانسان فيما آتاه الله من فضله، وعلموا فعملوا بعلمهم، واحسوا ان لهم رسالة يؤد ونها فأدوها على أحسن ما تؤدى الرسالة. وكانوا مثال الفداء والتضحية لإعلاء كلمه الله، والذود عن مقدسات وطنهم، والكفاح في سبيل تحريره، والسير به قدما لمواكبة الحضارات المعاصرة مع المحافظة على أصالته. عاش أحداث عصره فعكسها ضميره اليقظ، واهتز لها أيما اهتزاز، ونفذت بصيرته الى أعماق محيطه، فجلا حوادثه، وحكم فيها عقله، فجاء شعره مثال الفن الهادف الذي يناضل عن الحق ويهدي اليه.

وما قولك في شاعر لم تخل قصيدة في ديوانه من موعظة حسنة، ومنافحة عن كتاب الله، وسنة نبيه، وإيقاظ للعروبة من سباتها العميق، ودعوتها الى نبذ الخلافات التي لا تخدم الا مصالح المستعمرين، والى التمسك بالعلم في أسمى معانيه: العلم الذي يحفظ كيان الامم، ويكفل لها حياة شريفة ، ويضمن لها سعادة الدارين.

أيها القراء الافاضل: ان شعر محمد العيد، ليس شعر المناسبات كما قد يتبادر الى الذهن. إنما اتخذ الملتقيات فرصا للتعبير عن آرائه،

18) الديوان ص 336 ـ 338
19) الديوان ص 11.

وللإعراب عن عاطفته الجياشة، والمبادىء التي آمن بها، فقضى ما يقارب الستين سنة في الدفاع عنها، وكان أمله الوحيد ان تتحقق، ولقد قدر الله له ان يرى شعبه يتحرر من قيود الاستعمار، ويسترجع كرامته، فاغتبط بذلك كل الاغتباط، وتغنى بالنصر المبين، ومات قرير العين طيب الله ثراه.

ما قولكم في شاعر لم يغره فنه وعبقريته، ولم تستهوه الألقاب؟ إنما كان عمله لله. أليس هو القائل:

يقولون لي أمسيت بالشعر لامعا
فهل أنا بعد الموت بالشعر لامع؟
فياويح نفسي من دعاو كثيـــرة
يصانعني قولا بها مـن يصانـــع!
ورب كلام قلته، أو ســـمعتـــه
به أنا في وادي الأضاليل واقـع
أاذا لم يداركني من الله عفـــوه
فإطراؤهم إياي للجنب صـــارع
على نفسه فلبيك من كان قادمـا
على الله إن أجدت عليه المدامع
بأي بيان عنده وبـــلاغـــــــة
يجادل عن أعماله ويدافـــع؟[20]

إنما كان ناصحا لقومه، وللإنسانية:

بنيت حكمـة العقـول على النصـ
ح وقامت شرائع الاديان[21]

وكان يعتبر نفسه أخا لقمان:

(قف قليلا أفدك بعض الوصايا   وأزودك عـــدة الميـدان

20) الديوان ص 9.
21) الديوان ص 278.

انت عندي أخو ابن لقمان فاظفر   بوصاياك من أخي لقمان)[22]

وذلك لا يعني انه كان معتدا بفنه. إنما كان تقيا، زاهدا، متواضعا لله، ساعيا في سبيل رضاه، لم يتخذ شعره مطية الشهرة.

يقول في لامية يخاطب بها تلامذته:

(وقصيدة قد قلتها كي يهتدي   بعظاتها ما قلتها ليقالا
قدمتها هبة لكم وكأنني   قد صغتها من طودكم تمثالا
فتقبلوها بالرضا وارجوا لها   أن تستحق رضا الإله تعالى
فهو الموفق للمراشد مبدأ   وهو الموفق للأجور مآلا)[23]

وحيث سقت نماذج كشواهد من شعر محمد العيد فلا بأس ان أتكلم على ما يتعلق بشعره من ناحية العروض.

لقد طرق محمد العيد في شعره جميع البحور الشعرية الستة عشر، وبعض أضربها، ماعدا ثلاثة أبحر منها: هي: المنسرح، والمضارع، والمقتضب.

وقد أنشد قصيدة على تفعيلة واحدة من البحر الكامل تحت عنوان: (دمعة على القمر الخاسف) جاء فيها:

(يا للعبر   خسف القمر   ماذا دهى   زين البها؟
عشى الحلك   وجه الفلك   وعرا الكدر   صفو البشر)

وهي تشتمل على سبعة وأربعين جزءا، وقد أتى ببعض أبياتها مذالا. ولم يأت شعر على تفعيلة واحدة من تفاعيل الكامل، لا في شعر العرب، ولا في شعر المولدين. وإنما الذي جاء في شعر المولدين كان من تفعيلة الرجز (مستفعلن)، لا من تعفيلة الكامل.

لأن للعرب تصرفا، واتساعا في الرجز: لكثرته في كلامهم، في مواطن الحرب، ومقامات الفخر، والملاحة.

قال الزجاج: الرجز وزن يسهل في السمع، ويقوم في النفس، ولو

---

22) الديوان ص 266.
23) الديوان ص 266.

جاء منه شعر على جزء واحد مقفى لاحتمل ذلك لحسن بنائه. كقول عبد الصمد بن المعذل المتوفى (سنة 240هـ):

قالت خبل ماذا الخجل هذا الرجل حين احتفل أهدى بصل

فجاء بالقصيدة كلها على (مستفعلن). وهذا النوع لم يسمع منه شيء للعرب.

ويقال: ان من ابتدع هذا الوزن سلم الخاسر المتوفى (سنة 186هـ) في قوله:

(موسى المطر * غيث بكر * ثم انهمر * ألوى المرر
مم اعتسر * ثم ابتسر * وكم قدر * ثم غفر
عدل السير * باقي الاثر* خير وشر * نفع وضر
خير البشر * فرع مضر بدر بدر * والمفتخر
لمن غبر)

ولعل محمد العيد كان يظن أن التفعيلة من بحر الرجز، فان تفاعيل بحر الكامل كثير ما تشتبه بتفاعيل بحر الرجز. لأن (متفاعلن) في الكامل اذا دخله الاضمار، صار (مستفعلن) بعد الانتقال من متفاعلن).

ويستعمل محمد العيد في مطلع قصائده التقفية اكثر من التصريع، وتارة لا يستعملهما بتاتا. وشعره خال من الزحاف المزدوج ـ المركب ـ لأنه مجتوى مستكره. كما أنه لا يستعمل الوقص في تفعيلة الكامل، ولا العقل في جزء الوافر، ولا القبض، والكف في الجزء السابع من الطويل: لأنه وان كان زحافا مفردا جائزا دخوله على هذه الابحر لكنه قبيح مستكره يمجه الذوق السليم.

لذلك لا نجده في شعر الفحول من الشعراء المطبوعين. ولنأخذ مثالا لذلك. فقصيدة عمرو بن كلثوم المتوفى (سنة 602م) التي مطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمورا لاندرينا

من أول الوافر، وهي مائة بيت وبيت (101) دخل العصب في مائتين وأربعة وعشرين (224) مثالا منها، ولم يدخل العقل بالمرة فيها.

وقصيدة لبيد بن ربيعة المتوفى (سنة 661 م) التي مطلعها:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

من أول الكامل، وأبياتها ثمانون بيتا. لم يدخل الوقص فيها قط. اما الاضمار فقد دخل في واحد ومائتي تفعيلة (201) منها. وذلك لعذوبته، وقبح الوقص.

- والمتتبع لقصائد محمد العيد التي هي من البسيط لا يجد (مستفعلن) الواقعة في حشوى الصدر، والعجز مخبونة بخلاف تلك التي في أول الصدر والعجز. ولنأخذ على سبيل المثال قصيدة المتنبي التي مطلعها:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وهي من ثاني البسيط، وأبياتها ستة وأربعون بيتا. وفيها من الاجزاء السباعية مائة وأربعة وتسعون جزءا (194) دخل الخبن على سبعة وثلاثين جزءا من التي في أول الصدر، والعجز، ولم يدخل على أي حزء من الاجزاء الواقعة في الحشو.

- ولا ينسى محمد العيد ان يترك (مستفع لن) ذات الوتد المفروق في الخفيف غير مخبونة بل يخبنها: لأن سلامتها من الخبن يحس السامع بها كأن البيت مختل الوزن.

كما أنه لا يغفل عن استعمال المعاقبة، والمراقبة، والمكانفة في الابحر التي تدخل عليها وهي أصعب ما في فن العروض.

ولا نجد في شعره عيبا من عيوب القافية: كسناد التأسيس، وسناد الحذو، والاقواء، والإصراف الى غير ذلك من عيوب القافية.

فمحمد العيد شاعر فحل متمكن من فنه، فشعره درر نسقتها يد فنان بارع. رحم الله أخانا محمد العيد، وأسبل عليه شآبيب رحمته.